

الاسم: غازي الموزان

• حاصل على بكالوريوس في علم الاجتماع والخدمة الاجتماعية

• حاصل على تصنيف أخصائي اجتماعي من الهيئة السعودية

للتخصصات الصحية • حاصل على دبلوم عالي في إدارة الموارد

البشرية

• حاصل على العديد من الدورات في القيادة والتنمية

العنوان مئة يوم من العزلة

مئة يوم من العزلة

**الأحداث العالمية خلال العزلة الإجبارية التي سببتها
جائحة كورونا (كوفيد- 19) التي تسببت بشلل تام للعالم بأسره**

سنة 2020

تأليف

غازي الموزان

طومح

مقدمة

على مر التاريخ والعصور، اجتاحت الأوبئة المجتمعات الإنسانية بكافة طبقاتها، وعلى نطاق واسع، إذ حصدت أرواح الملايين من البشر عبر فترات زمنية قصيرة مختلفة، وقد أثّرت هذه الكوارث على المجتمعات الإنسانية، وأسهمت في تغيير الاتجاهات الثقافية والأنثروبولوجيا¹ الاجتماعية، والتغيرات السيكولوجية النفسية العميقة التي طرأت على الأفراد بعد مضي هذه الكوارث الطبيعية، مع التحفّظ على كلمة "طبيعية" في وقتنا الحالي، لأن ما يشاع عن صناعة مسببات الأوبئة التي تنتشر في عصرنا الحالي، كفيل بأن يجعلنا نشعر بالخطر مضاعفاً، فالطبيعة -على قسوتها- أكثر رحمة بالإنسان من أخيه الإنسان، إلا أن ذاكرة الإنسان الجمعية تظل محتفظة بكل التصورات التي سببتها الأوبئة والجوائح في عصور خلت، من رعب وهلع حدا بالكثير من المؤرخين والكتاب لتناولها بإسهاب وتفصيل، فوثّقوا لنا ما فعلته تلك الأوبئة مثل وباء الطاعون الذي أطلق عليه لقب "الموت الأسود" الذي حصد ما يزيد عن 200 مليون روح في الكوكب كله، أو الكوليرا، أو الجدري، أو حتى الإنفلونزا التي كانت تعتبر في يوم ما وباءً حقيقياً فتك بالبشرية، لذلك فإن الأوبئة تجعل الشعوب في وضع استعداد دائم لمثل تلك التجارب، فهي كالحروب التي نخوضها مجبرين، ونكتسب من خلالها الخبرة والتكيّف والمعايشة مع ظروف تلك الكوارث، لتستمر الحياة الإنسانية.

¹ بالإنجليزية: (Anthropology)) من أصل يوناني حيث Anthropos تعني إنساناً، و Logos تعني علماً. فيكون هذا العلم مختصاً بدراسة الإنسان.

<https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D9%84%D9%85%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%86%D8%B3%D8%A7%D9%86>

الفصل الأول

منظمة الصحة العالمية

تم الاتفاق على تعريف اصطلاحي شامل "للصحة"، وذلك حسب ما جاء في ديباجة دستور منظمة الصحة العالمية، والتي تم اعتمادها في مؤتمر الصحة الدولي المنعقد في نيويورك في الفترة ما بين 19 يونيو، و22 يوليو 1946، حيث وقّع عليه في 22 يوليو 1946، ممثّلو 61 دولة²، ودخلت حيّز التنفيذ في 7 أبريل 1948، ومنذ أن دخل الدستور حيّز التنفيذ لم يخضع ذلك التعريف لأي تعديل يذكر، حيث تم تعريف الصحة على أنها "حالة من اكتمال السلامة بدنياً عقلياً واجتماعياً، لا مجرد انعدام المرض أو العجز".

كما وثّقت الديباجة الكثير من النقاط الأساسية التي تم اعتمادها، بهدف تأطير مفهوم "الصحة" ضمن قواعد ناظمة، وأطر تخدم مصالح الشعوب دون استثناء، فكانت أولى النقاط التي ركّزت عليها، اعتبار أنّ الحقوق الأساسية والمشروعة لكل إنسان أن يتمتع بأعلى مستوى صحي، دون تمييز عنصري أو عرقي أو ديني، أو اقتصادي، أو اجتماعي، كما أكّدت الديباجة على أنّ بلوغ الأمن والسلم العالمي، قائم أيضاً على الحالة الصحية المجتمعية للشعوب قاطبة، وهذا لا يتحقق إلا بالتكافل والتعاون الأكمل بين الأفراد والمجتمعات والدول.

وقد جاء في ديباجة دستور المنظمة ما جاء، ولست هنا بصدد تفصيل القوانين والقواعد الناظمة لمفهوم الصحة وتبعياته، لكنني ذكرت ما ذكرت من باب أن الشيء بالشيء يذكر، والأهم من هذا كله هو أن تُبصر هذه الديباجة النور برمتها، فمتى سيتم إطلاق سراح كل ما جاء فيها من زنانة الأحبار والدواة؟! فلا تبقى مجرد حبر على ورق.

² السجلات الرسمية لمنظمة الصحة العالمية، المجلد 2، الصفحة 100

عنوان بداية الجائحة

جائحة فيروسية عالمية بدأت في الأول من ديسمبر 2019 من سوق للأطعمة البحرية في ووهان الصينية، حيث قامت السلطات الصحية في الصين إبلاغ منظمة الصحة العالمية عن تجمع مرضي لحالات من الالتهاب الرئوي الفيروسي مجهولة الأسباب، وفي 30 يناير 2020، أعلنت منظمة الصحة العالمية عن تفشي هذا المرض كحالة طوارئ عالمية. في بداية الأمر وبعد الانتشار السريع للمرض في بعض الدول والأقاليم، أعلنت منظمة الصحة العالمية في 11 مارس 2020 بأن فيروس كورونا أصبح جائحة عالمية، فأطلقت توجيهاتها لدول المنظمة بأخذ التدابير اللازمة لمنع انتشار هذا الفيروس، وعندئذ خيم الرعب على العالم أجمع، فبدأت دول العالم تتسابق على اتخاذ إجراءات متسارعة قبل إغلاق الحدود والملاحة والمطارات في وجه جائحة غريبة لا يُعرف إن كانت طبيعية أم بيولوجية، لكنها تجتاح العالم بأسره، وتفتك بكل مظاهر الحياة، فبدأت المطارات تزدحم، بعد أن طالبت الدول رعاياها بالعودة من الدول الموبوءة، كما بدأت حدود الدول البرية تغلق أمام المسافرين لمنع انتشار الفيروس، وشركات الطيران تعلق الرحلات خوفاً من انتشار الفيروس، وساد الغموض والخوف من المجهول أوساط المنظمات الصحية الدولية في ظل تساؤلات كثيرة حول قدرات المنظمات الصحية الاستيعابية في حال ارتفاع الحالات لشكل هيبستيري، والخوف من انهيار المنظومة الصحية أمام تلك الجائحة العالمية.

بدأت الدول تشغل مختبراتها الصحية بكامل طاقتها لتحديد ماهية هذا الفيروس وأسبابه، على أمل أن يتم الوصول إلى عقار ينقذ البشرية من كارثة الفناء، أو على الأقل الحد من انتشاره آنيًا، من خلال أخذ التدابير والإجراءات الاحترازية للحفاظ على الأرواح، في ما يدق ناقوس الخطر بعد إعلان إيطاليا ١٠٠٠ وفاة خلال ٢٤ ساعة فقط، وبعد انهيار المنظومة الصحية التي تعتبر من أفضل منظومات الصحة العامة في العالم انهار كلياً أمام "كوفيد-19"، فمحدودية الموارد أجبرت الأطباء على اتخاذ قرارات قاسية بشأن "من يعالجون"، حيث بدأ الأطباء بتحديد أولوية العلاج، آخذين في الاعتبار عمر المريض وحالته، ويظل ناقوس الخطر يدق بعد إعلان إيراني عن تفشي فيروس كوفيد-19 الذي بات يشكل خطراً كارثياً على المجتمع الدولي والخليجي، لتتسارع الأحداث بانتقال الفيروس من إيران الي دول الخليج الكويت ثم البحرين ثم السعودية، وبذلك تعلن كل دول الخليج عن حالة التأهب الصحية، وبعد أسبوعين فقط تعلن حظر التجوال الجزئي لبعض المدن، والحجر الجزئي، وبعد عزل أجزاء كبيرة من المجتمع على المدى الطويل، سيكون الضرر الاجتماعي والاقتصادي كارثياً.

كثيرة كانت التساؤلات المحيرة عن الحلول المأمولة، والمستقبل المجهول في ظل هذه الجائحة، متى يستفيق العالم من هذا الكابوس المرعب؟

جائحة كورونا تهدد بضياح جيل كامل

في الرابع والعشرين من أبريل عام ٢٠٢٠، وبعد اجتياح كوفيد-19 للعالم، تهافت الناس على أقسام الطوارئ في المستشفيات، رغم التحذيرات الحكومية بعدم الخروج من المنازل، حفاظاً على السلامة العامة، لكن أعداد المصابين كانت هائلة تفوق قدرة المنظومات الصحية على استيعابها، ما أدّى إلى تشديد سطوة الإجراءات الاحترازية حتى ألغيت كل مظاهر الحياة، الشوارع خاوية إلا من عناصر الشرطة ومن في لفيفهم من معنيين لتطبيق تلك الإجراءات، فمكثنا في منازلنا لا نستطيع الخروج منها، دون معرفة الوقت المقرر للخروج من هذه الكارثة، انتابتنا الريبة من المجهول، وأغلقت علينا الأبواب لنظل حبيسي تلك المنازل التي لم نعتد الجلوس فيها لأوقات طويلة. محاصرون فيها بخوف وذعر من الحاضر المؤلم والمستقبل المجهول، وقد أطبق على صدورنا اكتئاب

مقيت، أصاب الكثير منا بالتوحد والعزلة بسبب الاجراءات الاحترازية التي فرضتها جميع الدول.

وحتى الوصول إلى أهلنا أو أقاربنا صار أضغاث أحلام، ولشدة الاجراءات الأمنية الصارمة كان بإمكانك أن تصل إلى المريخ مثلاً وبكل سهولة، دون أن تتكبد عناء الإجراءات، لكن يستحيل عليك أن تخطو قدماً خارج عتبة باب بيتك، لقد حُرِّمنا من تلك الزيارات العائلية واللقاءات مع الأصدقاء والخلان، مكثنا الكثير من الوقت في غرف مقلقة، نراقب من شبائيكها الشوارع التي طالما مشينا فيها، وكثراً في غالب الأحيان ننسف أي مشروع للمشي أو نستثقل الوقت والخطى إذا ما هممنا لمشروع من هذا النوع في حياتنا قبل الوباء، وأما الحال في زنانات الموت البطيء، صار سقف طموحاتنا بسيط، صرنا نتوق للمشي في الشارع، وحتى المشي كان صعب المنال، فكيف لطموحاتنا في أن نعود لسابق عهدنا، ونمشي دون قيود أن نتحقق؟! بل كيف لأبسط آمانياتنا أن تحقق في ظل كارثة هددت العالم أجمع بقرب الفناء؟! أين نجد بارق أمل وكل معالم الحياة تغيرت؟ فكبار السن والأطفال وكل شيء أمام عيوننا في خطر، منظمات تحذر وأخرى تفرض الإجراءات، مساجد تهجر ولا تقام فيها الصلوات، أناس تعلقت قلوبهم بالمساجد لكنها حُرِّمت حق الوصول لأداء الصلاة فيها، فراحت تلك الأفئدة تدعو الله بأن تزاح تلك الغمامة السوداء عن هذا العالم، كل في زنانتة الفردية يؤدي صلاته وكل ابتهالاته ضمن منزله -الزنزانة الأكبر بالنسبة للعائلة والتي تفصلها عن محيطها الاجتماعي- وحتى أفراد العائلة معزولين عن بعضهم البعض، وكل ذلك كان جزءاً من تبعيات وآثار الجائحة على الوجه الاجتماعي للحياة، أما الوجه الاقتصادي للحياة فقد سُلب تماماً، مشاريع أعلنت الإفلاس بسبب الإغلاق المستمر الذي صاحب

الجائحة، ومشاريع توقفت بسبب انقطاع المواد الأولية، وكثير من الشباب الذين أحبوا أن يشاركوا في بناء هذا الوطن بالاستثمار وإنشاء مشاريعهم الخاصة، أقفلت مشاريعهم وتحطمت أحلامهم تحت وطأة وسطوة الجائحة.

وقد بيّنت العديد من التقارير والدراسات أن الجائحة تهدد بضياح جيل كامل³، إذ إنها تلحق الضرر بالنمو الإدراكي والمعرفي والأجور المكتسبة مدى الحياة للأطفال والشباب، الأمر الذي يُعرّض رفاهة الأجيال ونمو الاقتصادات للخطر، حيث يقول أول تحليل للبيانات عن الشباب الذين كانت أعمارهم دون 25 عاماً عند بداية جائحة كورونا (كوفيد-19) على مستوى العالم: "إن الجائحة أدّت إلى انهيار هائل لرأس المال البشري في أوقات حرجة من دورة الحياة، مُتسببَةً في تعثر نمو ملايين الأطفال والشباب في البلدان منخفضة ومتوسطة الدخل، فرأس المال البشري بمختلف مكوناته المعرفية والصحية التي يكتسبها الإنسان على مدار حياته يشكّل عاملاً حاسماً لإطلاق العنان لإمكانات الطفل، وتمكين البلدان من تحقيق تعافٍ قادر على الصمود والنمو القوي في المستقبل، ونتيجة للجائحة، فقد الأطفال في سن ما قبل المدرسة في بلدان متعددة أكثر من 34% من المعرفة المبكرة باللغة ومبادئ القراءة والكتابة، وأكثر من 29% من التعلم في الرياضيات بالمقارنة بما حصل عليه من سبقوهم قبل الجائحة، كما وجّهت جائحة كورونا ضربة موجعة لتشغيل الشباب. إذ لم يتمكن 40 مليون شخص، كان من الممكن لو لم تقع الجائحة أن يحصلوا على وظائف، من دخول سوق العمل بنهاية عام 2021،

³ جائحة كورونا تلحق الضرر بالنمو الإدراكي والمعرفي والأجور المكتسبة مدى الحياة للأطفال والشباب، الأمر الذي يُعرّض رفاهة الأجيال ونمو الاقتصادات للخطر، <https://www.albankaldawli.org/ar/news/press-release/2023/02/16/covid-19-s-impact-on-young-people-risks-a-lost-generation>

واشتدت اتجاهات البطالة في صفوف الشباب. وتقلّصت أجور الشباب بنسبة 15% في 2020، و12% في 2021. ومن المتوقع بحسب هذه الإحصاءات وغيرها أن يشهد الداخلون الجدد إلى سوق العمل ولديهم مستويات تعليمية أقل، نقصان أجورهم المحتملة 13% خلال العقد الأول لالتحاقهم بسوق العمل. حيث أظهرت شواهد مستقاة من البرازيل وإثيوبيا والمكسيك وباكستان وجنوب أفريقيا وفيتنام أن 25% من جميع الشباب كانوا محرومين من التعليم والتوظيف والتدريب في 2021.

قصتي مع الجائحة

في السادس من أبريل عام ٢٠٢٠ بذلت الحكومة السعودية الجهود الحثيثة للحد من انتشار كوفيد 19، حيث فرضت السلطات الحجر الكلي بين المناطق، ومنعت العمل في الأنشطة التجارية، ومع بداية تلك الإجراءات الاحترازية والتوعوية لعدم انتشار الفيروس في الأيام الأولى من الحجر الكلي، لم يعتد الناس تلك الإجراءات، والمكوث في المنازل لساعات وأيام طويلة، أصبحت الحياة قائمة يتخللها متابعة نشرات الأخبار وما تنشره مواقع التواصل الاجتماعي على صفحات بيضاء أو صفراء، ثم يتداولون الأخبار السلبية والكثير من الشائعات عن انتشار الجائحة السريع في المجتمع، مما عزز الترويج السلبي للأخبار، فانتشرت الشائعات مثل النار في الهشيم، أصبحنا تحت سطوة حرب نفسية كانت تبعياتها أسوأ مما خلفته الجائحة من آثار، صرنا نخاف بعضنا الآخر، كثر التوحد والانعزال، وكثرت معها حالات الاكتئاب المسببة للانتحار، وزاد التباعد الاجتماعي أكثر فأكثر، وانعدم التواصل البشري والحسي، لدرجة أننا صرنا نحاول أن نتحسس أحببتنا، أو نمسّد شعرهم، ونحاول أن نتلمّس أيديهم عبر الشاشات المجرّدة من شتى معالم الأنس، تَبّاً للوباء الذي قلب حياتنا رأساً على عقب، وجعلنا مثيرين للشفقة.. وفي حالة يرثى لها.

تحذيرات مستمرة خصوصاً من وزارتي الداخلية والصحة السعوديتين، تقارير يومية تُبثُّ على الهواء عن الاجراءات وأعداد المصابين، كنت أتابع تلك التقارير كل يوم، وحالي كحال الملايين من البشر؛ الخوف يزداد كل يوم مع ازدياد الحالات المصابة، وخاصة أنني أعاني من الربو المزمن، وجلّ التحذيرات شدّدت على ضرورة توخي الحيطة وأعلى درجات الحذر من أصحاب الأمراض المزمنة

وكبار السن، أصبح الخوف ينتزع قلبي من مكانه مع كل تصريح أو خبر، لدرجة أن الخوف الذي سكن المعمورة برمتها احتلّ كياني، وأرقّ حياتي ونومي، وهدم كل آمالي في الرجوع إلى سابق عهدي أعيش الحياة، ولكن إن كان ثمة أمل في ذلك، فسأعيشها بعينيّ عائد من الموت بل ومن البرزخ.

في تلك اللحظة من الإحباط واليأس، تبقى هواجسنا مجرد أحلام وردية، لكن لا بدّ منها كي أجد أنا وغيري سبباً لنستقبل يومنا التالي، وفي ظل هذه الفترات المقيتة من الحجر المنزلي، انقطعنا عن أي تواصل مع العالم الخارجي، إلّا من خلال شاشات التلفاز والأجهزة المحمولة، كثّرت التساؤلات.. أين العلم والعلماء؟ أين المختبرات والأجهزة المتطورة من هذا الفيروس الذي وضع العالم في موقف ضعيف؟ ومع كل هذه الأسئلة لم يكن هناك من يستطيع أن يجيب، أيامنا أصبحت متشابهة، وكل يوم أفضل من اليوم الذي يعقبه، في الوقت الذي كان فيه الجديد الوحيد هو أرقام المصابين التي تزداد بتسارع مرّوع، ويزداد معها اضطرابنا النفسي، وبالفعل أن نطلق على تلك الحالة "اضطراب نفسي، هوسيّ إلى حد الجنون" أمر لا تشوبه مبالغة، في الوقت الذي تناولت فيه الكثير من التقارير، المشاكل النفسية والصحية التي تسببها الجائحة، حيث قالت⁴: "من الممكن أن يسبب "كوفيد 19" في إثارة القلق بشكل عام والإجهاد والضغط النفسي والقلق بين الأفراد، إذ أن الأسباب تتلخص في:

⁴ أثر جائحة فيروس كورونا على الصحة النفسية:

الخوف من المرض والموت، والخوف من فقدان العمل وسبل الكسب من أجل العيش، والخوف من العزل الاجتماعي، و شعور الفرد بالعجز عن حماية نفسه وحماية أحبائه والمقربين منه"، كما أوصت الدراسة بنقاط كثيرة للوقاية من حالات الصحة النفسية كان أهمها، التركيز على التواصل والحافظ على إقامة شبكات اجتماعية من خلال وسائل التواصل المتاحة أثناء الحجر، والاعتناء بالاحتياجات والمشاعر الخاصة، وتزجية النفس بالانخراط في أنشطة مريحة ومهدئة للأعصاب، فضلاً عن تجنب الاستماع إلى الشائعات ما أمكن.

في ظلّ الجائحة تركزت وسائل التكنولوجيا وحلولها بشكل كبير، لتملأ هذا الفراغ الكبير الذي خلّفته الجائحة، حيث تم إحراز العديد من التطورات التقنية في مجالات الطب، والاتصالات الافتراضية، والتعليم الإلكتروني، والذكاء الاصطناعي، والتجارة الإلكترونية، فانتشرت تطبيقات كثيرة بهدف تخفيف وطأة وأثار الجائحة على كافة مستويات الحياة، وأصبح التعليم والعمل الإداري وكل شيء ممكن عن بعد. حاولت جاهداً أن أستفيد من ذلك الوقت الطويل جداً، كحال غيري من البشر، وبالفعل كنت في كل يوم أبحث عن دورات لتطوير الذات، ودورات في الخدمة الاجتماعية والموارد البشرية، ثم اتجهت إلى الكتب والقراءة لقضاء أوقات العزلة، كما أنني أصبت وغيري بمتلازمة البحث الإلكتروني عن الأوبئة التي اجتاحت العالم، إذ أنني قرأت في العزلة عن الموت الأسود الذي اجتاح أوروبا في عام 1347 وتسبب في قتل ثلث سكان القارة. تلك الكتب كانت على رفوف المكتبات ولم نحاول في يوم من الأيام

قراءتها، فالعزلة وظروف الجائحة علّمتنا أن نقرأ الكثير من الكتب الالكترونية، حيث أصبحت الكتب الالكترونية وجهة البعض بحثاً عن الفائدة العلمية، والبحث في الهوايات المختلفة، ورغم التكنولوجيا المتطورة التي حوّلت العالم إلى قرية صغيرة، إلا أنّ الوحدة تقتل كل شيء جميل، وشهور العزلة الإجبارية كانت قاسية بقساوة ذلك الخوف الذي يصاحبها، وثقل أيام الترقّب الذي أضنى قلوبنا.

أما قصتي الحقيقية مع الجائحة بدأت في اليوم الرابع من يونيو، وتحديدًا بعد منتصف تلك الليلة البائسة، عندما تلقيت خبر تنويم والدي في مدينة تقع شمال المملكة، ومع الظروف والاجراءات لفرض حظر التجوال بين المدن، واجهنا صعوبة بالغة في السفر إلى تلك المدينة، بعد معاناة في الحصول على تصريح للتنقل لم يكن هناك متسع من الوقت، فحالة والدي تزداد سوءاً في المستشفى الذي نُقل إليه، وأخيراً بعد محاولات كثيرة من رفض تصريح السفر عبر القنوات الالكترونية تم السماح لنا بالسفر، وكان الوقت الذي يبدأ فيه التصريح هو الساعة الثانية صباحاً من يوم الحادي عشر من يونيو، سافرنا إلى شمال المملكة وكانت أول مرة نسافر فيها إلى هناك بعد إعلان الحجر، وفرض منع التجوال بين المناطق، وبعد أن خرجنا من حدود المدينة التي نسكنها، وأخذنا الطريق السريع المؤدي إلى الشمال، والذي كان في سابق عهده يغصّ بالمسافرين ذهاباً وإياباً، لكنّه كان أثناء سفرنا طريقاً موحشاً يخلو من أي مظهر يبشّر بالحياة، حتّى الطيور والنباتات لم ترها عيناى، وكأنها خضعت لقوانين الحظر أيضاً، أو أنني كنت أعمى البصيرة وقتها، فما كنت أراه ناجم عن اضطراباتي الداخلية، ومشاعري المختلطة بالخوف من فكرة أن أخسر والدي للأبد، وبالدهشة من رؤيتي للعالم الخارجي من جديد، والذي لم يختلف قيد أنملة عن عالمي داخل زنزاتي المنزلية.

مشينا طوال الطريق لم نرَ سيارات أو بشر، سوى نقاط التفتيش التي كانت ترابط على مفاصل الطرقات لحفظ الأمن والأمان، وأثناء المسير مررنا بمحطة للتزود بالوقود، تلك المحطة التي كنا نتوقف فيها أثناء السفر قبل الجائحة، حين كانت تعجّ بالمسافرين، لكنها اليوم خاوية تماماً إلا من تذاؤب الريح، وكأن الريح مضطربة أيضاً وتشكو حالنا من الجائحة، ولأول مرة في كل مرّات سفري أشعر بأن الطريق تطول كلّما تقدمنا.. كأنها تعاندنا، أو أن المسافات تأبى الفناء، ومع مرور كل دقيقة أنظر إلى ساعتني مجدداً، فيزداد في كل نظرة ذاك الثقل الذي أطبق على صدري مذ سمعت النبأ عن والدي، الثقل الذي أخذ يزداد مع كل متر تقطعه سيارتنا، ومع كل يافطة طريقية تبشّر باقتراب الوصول رغم بعد المسافة المتبقية التي أشعر بها، وقد امتزج الثقل بهلع وخوف من ألا أرى والدي حينما أصل، ما أثار براكين غضبي وانفعالي وحزني.

واصلنا الطريق متجهين إلى تلك المدينة حيث يقطن والدي، وأثناء وصولنا إلى بداية المدينة المشلولة من الحركة تماماً، وكأنها مدينة أشباح، الشوارع فيها خالية والمحلات مغلقة، وأثناء سيرنا في مدخل المدينة، رأينا إحدى الفنادق الجديدة، وأمامها سيارات رسمية وسيارات إسعاف، هذا الفندق الجميل الذي تحول أثناء الجائحة الي مكان للحجر الصحي للمصابين بفيروس كورونا كوفيد19، أصبحت كل الأشياء الجميلة دون قيمة، لم تعد القيمة الحقيقية للأشياء كما كانت في السابق قبل الجائحة، كانت الناس تتهافت للفنادق العالمية في دول العالم، تلك الفنادق التي كانت الواجهة السياحية للراحة والاستجمام.

حين وصولنا إلى الحي الذي تقبع فيه المستشفى، اتجهنا إليها مسرعين حيث يرقد والدي، كانت الساعة الثامنة صباحاً، لم نرَ أحداً في "الباركينغ" كانت ساحات المستشفى تكاد تخلو تماماً من الحركة، نزلنا من سيارتنا واتجهنا إلى البوابة الرئيسية، وبعد مقابلة موظفي الاستقبال، طلبنا الطبيب المسؤول عن حالات الوباء، وبعد محاولات كثيرة سمح لنا بالدخول شريطة توخي الحذر، حيث وجَّهنا إلى قسم الجراحة بعد أن ارتدينا الغفارات والكمادات الطبية كما يجب، بدأنا نمشي داخل تلك الممرات بذعر وحذر حتى وصلنا إلى الغرفة حيث حُجِر والدي، وكانت الغرفة معزولة بزجاج كبير شفاف، رأيناه من خلف الزجاج تطبيقاً للإجراءات التي كانت تشدّد على عدم الدخول حفاظاً على سلامة المرضى والزوار، وقفنا ننظر إلى تلك المشاهد من حولنا، وأخذنا نلمس زجاج الغرفة علّنا نستطيع لمس شيء من والدي، كانت المسافة التي تفصلنا بضعة أمتار قليلة أو أقل، ورغم ذلك شعرت أنني في أقصى الجنوب، وأراه مضجعاً فراش المرض في أقصى الشمال، كم شعرت وقتها بالخوف من أفقد دفء الغمرة، كم حقدت على الحياة والقدر في أن يجعلها المرة الأخيرة، فمن سيكون مرشدي في الحياة بعد والدي؟ ورغم كبر سني وعمق تجربتي في الحياة ما زلت بحاجة إلى النهل من حكمة والدي التي خطّتها الحياة ورسّختها في كل ثنية من تجاعيد وجهه وكفيه، وفي لحظة من ذاك الخوف استفتت من غيبوبة الهلع والأفكار السلبية، صرت أحاول التفكير بكل شيء إيجابي وفي طيّات تفكيري شرعت أبتهل في الدعاء والصلوات حتى يخرج والدي من أزمته سليماً معافى، وأثناء وقوفنا أمام الغرفة، تقدّم أحد الممرضين باتجاهنا، وطلب منا المغادرة، وبالفعل اتجهنا إلى بوابة الخروج عبر ممرات قسم العزل الصحي، حيث كانت كل الطواقم الطبية تمشي

بحذر، كان المنظر مرّوعاً تقشّر منه الأبدان، وقبل أن نخرج من المستشفى طلبنا رؤية الطبيب المسؤول مجدداً، لنستفسر منه عن حالة والدي باستفاضة، وقد أخبرنا الطبيب أن الحالة صعبة وتحتاج لأيام حتى تنحو إلى الاستقرار. خرجنا من المستشفى، ولا نعلم ما الذي سيحدث في قادم الأيام، راجين أن تكون هذه المحنة برداً وسلاماً على والدي وعلى كل مصاب أتى وجد في أصقاع الأرض.

فور خروجنا من المستشفى اتجهنا إلى قرية تبعد ٣٠ كيلومتراً عن المدينة، حيث يقبع منزل والدي، ونحن في الطريق توأجت الكثير من نقاط التفتيش التي طلبت تصريح التجول منذ انطلاقنا من المستشفى، وأخيراً وصلنا إلى قريتنا بعد عناء السفر والإرهاق الجسدي والنفسي، دخلنا المنزل وإذ بالتلفاز مشغّل على قناة الأخبار، حيث كانت الفقرة الخاصة بالوباء، توضّح أعداد المصابين حتى اللحظة، وأنّ هذه الأعداد أصبحت تزداد على مدار الساعة، كما توضح أعداد الوفيات الآخذة بالازدياد أيضاً، أخبار مخيبة للآمال بحق، زادت يومنا العصيب قتامة وسوداوية، فويلنا على والدي فربّما لن نتمكن من مشاهدته مرة أخرى إلى أن يخرج من الحجر ويتعافى، وويل للوباء والظروف التي جرّدت الحياة من كل معنى للسعادة والراحة والسكينة، فحياتنا أصبحت أقرب إلى حياة الثائرين الموتى -إن صح التعبير- كيف لا وأرواحنا مضطربة ومتهالكة، وصحتنا العقلية والنفسية لا شك بحاجة إلى مصحّة، فلا أعتقد أنني كنت مبالغاً في التشبيه، كيف أكون مبالغاً بعد كل هذا العصف الكوني علينا، مصائب ونوائب وكوارث هجمت علينا من كل حذب وصوب، كيف يكون التشبيه مبالغاً فيه؟ في الوقت الذ تملك فيه

القدرة -ولو مجبراً- على ترك ولادك في فراش المرض وحيداً يصارع الموت؟ كيف لا وكلّ واحد منا أصبح يخاف الآخر خشية أن يكون مصدراً لعدوى تفتك فيه للأبد وهو ما زال في ريعان شبابه وبداية إنجازاته . لا أعرف حقيقةً ماذا أقول من الجيد أننا مازلنا على قيد الحياة قادرين محاكمة الأمور بشيء يشبه المنطق والعقلانية، أتمنى من كل قلبي أن تزول هذه الغمّة التي استلبست حياتنا وحرقت أنفاسها.

في اليوم الثاني طلبنا التصريح عن طريق القنوات الالكترونية، للذهاب إلى المستشفى، لكن لم يُتَح لنا تصريح تجول في ذلك اليوم، حاولنا الاتصال بالمستشفى لمعرفة الحالة الصحية لوالدي، ولكن كانت جميع الخطوط مشغولة وبعد تكرار المحاولات تم السماح لنا بالتجول لمدة ساعتين، فذهبنا مسرعين باتجاه المدينة ليتسنى لنا زيارة والدي، وفي الطريق رأينا سيارة إسعاف مسرعة، حيث كانت تتجه باتجاه المدينة، إذ أن خلو الشوارع من الناس وانعدام الحركة في الشوارع، يدخل الخوف والرغبة من تلك الأوضاع المجهولة، وحين وصولنا إلى المستشفى تفاجأنا بسيارة الإسعاف التي رأيناها مسرعة، تقف أمام بوابة الطوارئ، وبداخلها شخص يصارع الموت بسبب حادث انقلاب على الطريق الدولي.

وقفت أراقب من بعيد تلك الطواقم الطبية التي كانت تعمل بكل بسالة من أجل إنقاذ أرواح البشر، دون خوف من خطر انتقال فايروس كورونا، فالأولوية القصوى بالنسبة لها إنقاذ تلك الروح وأي روح دون تمييز، بالفعل إن الطواقم الطبية هي "الجيش الأبيض"

الذي يعمل ليلاً ونهاراً دون كلل أو ملل، رغم الخطر الذي يهددهم من انتقال العدوى لهم ولعائلاتهم، إلا أنّ الواجب المهني والأخلاقي يحتمّ عليهم تقديم الخدمة والرعاية الصحية للمرضى والمصابين، فالبروتوكول الطبي الذي أقرته وزارة الصحة السعودية للجائحة يعمل بشكل منظم حتى لا تنهار المنظومة الصحية. دخلنا إلى المستشفى بعد أن جاءت الموافقة على الدخول، كنا نرتدي القفازات والكمادات والملابس الواقية، وبعد أن خضعنا إلى إجراءات الفحص الأولي للعلامات الحيوية قبل الدخول، تم إعلامنا أن وقت الزيارة قصير، وذلك حفاظاً على سلامة الجميع، وداخل قسم الملاحظة ذهبنا مسرعين والخوف والقلق ينتابنا، وصلنا أخيراً إلى غرفة الملاحظة، حيث يتلقّى والدي الرعاية الفائقة، كان يرانا من خلف الزجاج ويتحدّث معنا لكننا لم نسمع ما يقول، كانت كلماته بالنسبة لنا مجرد متممة وكأنه يقول لنا لا تخافوا.. انتظروني فأنا عائد إليكم قريباً"، وعندما شعر أن كلماته لم تصل من خلف الزجاج، قام بالإيماء لنا ليعلمنا أنه بخير، لم نمكث بضع دقائق حتى انتهت فترة الزيارة وطلبوا منا الخروج، ثم توجّهنا من فورنا إلى غرفة الطبيب المعالج، لكنه لم يكن متواجداً في غرفته، فأقسام المستشفى مليئة بالمرضى والحالات المشتبه فيها بالإصابة، ثم اتجهنا إلى غرفة المدير المناوب، وبالمصادفة التقينا بالطبيب المعالج هناك، فأخذنا نستفسر عن حالة والدي، وكلنا أمل بأن نسمع الأخبار المبشرة، أفاد الطبيب بوجود حرارة لم تنخفض حتى الآن، ويشتبه أنه مصاب بفيروس كورونا، كما قام بطلب تحاليل وصور شعاعية له للتأكد من خلوه أو إصابته بالفيروس، خرجنا من المستشفى متوكلين على الله، ومسلمين أمرنا له، فهو البارئ الشافي وهو الذي بيده مقاليد الدنيا والآخر، لكن وحسب الأخبار المتداولة آنذاك، فكان الكل متفق على

أنّ أي شخص كبير في السن وأصيب بالفيروس، قد لا يتحمل تداعيات هذا المرض الفتاك، وهذا ما كنا نخشاه في الموضوع، فأبي رجل كبير في السن ونتمنى من الله أن يستجيب لدعواتنا ويجنّبهُ ابتلاء الوباء ويردّه لنا سالماً معافى.

ركبنا سيارتنا متجهين إلى القرية رغم كثرة أصدقائنا ومعارفنا في هذه المدينة، إلا أننا لا نستطيع زيارة أحد منهم، حرصاً على السلامة العامة وتطبيقاً للتحذيرات والإجراءات الصارمة بعدم المخالطة والحرص على التباعد الاجتماعي، وبعد عدة أيام طلبنا تصريحاً جديداً للتنقل من أجل الذهاب إلى المستشفى، فكان الرد بعدم الموافقة من قبل الجهات المعنية، نتيجة تضاعف أعداد الإصابات وامتلاء غرف العناية المركّزة. أعدنا المحاولة بطلب التصريح مراراً، وبعد كثرة المحاولات تمت الموافقة على التصريح لمدة ساعتين، فأسرعنا باتجاه المستشفى لزيارة والدي، وحين وصولنا إلى المدخل الرئيسي للمشفى لاحظنا حركة غير طبيعية في الخارج، لم نر سيارة دخلت أمامنا ونحن ننتظر الإذن بالدخول، بل على العكس تماماً كان حراس الأمن يرجعون جميع السيارات. مُنعنا من الدخول حيث أغلقت المستشفى بالكامل، نتيجة ارتفاع أعداد الحالات وفقدان السيطرة على الوضع من قبل طواقم المستشفى، عدنا أدراجنا إلى تلك القرية الصغيرة، والهلع يسيطر على قلوبنا.. لم نرَ والدنا، حتى ولو من آخر ممر الملاحظة، صارت الأفكار تضرب عرض رؤوسنا جيئةً وذهاباً، بدأت أحاول تهدئة من حولي، ولكن كيف؟! وداخلي يغلي من وساوس الأفكار السلبية، ومعالم وجهي تفضح ما يجري داخلي من تخبطات. اسودت الدنيا في وجهي.. ضاق صدري وكأن العالم حُشر في عنق زجاجة.

طيلة طريق عودتنا إلى القرية كنا نصارع الأفكار السلبية، حتى وصلنا القرية مثقلين بالخيبة والخذلان من كل شيء، فلم نوفر وسيلة توصلنا بالمستشفى، لكن محاولتنا باءت بالفشل، وبعد عدة أيام من المحاولات اليائسة، استطعنا التواصل مع والدي عبر كاميرا جوال أحد العاملين في المستشفى. كانت حالته مستقرة نوعاً ما، هنا زالت مخاوفنا وهدأت نفوسنا قليلاً، بعد أن عاثت فيها الأفكار السلبية خوفاً طيلة الفترة بعد فشل زيارتنا الأخيرة، وسرعان ما انتهت المكالمة، إذ أن عامل المستشفى أخبرنا أن الوضع حرج للغاية ويتوجب عليه العودة إلى قسمه بسرعة، حيث أن الإصابات آخذة بالارتفاع بشكل جنوني، والفايروس يستشري في كل مكان.

صرنا نتواصل مع أبي عن طريق جوال عامل المستشفى، نطمئن على حاله بشكل يومي كلما سنحت الفرصة، كانت حالته تتحسن بشكل تدريجي، لكن كان علينا الانتظار حتى نستطيع زيارة المستشفى من جديد، وبعد خمسة عشر يوماً استطعنا الحصول على تصريح سفر وصار بإمكاننا الذهاب إلى المستشفى لتخريج والدي، وأثناء وصولنا إلى المستشفى تم السماح لوالدي بمغادرتها رغم عدم استقرار حالته الصحية، لكن المستشفى تضح بالحالات الحرجة فصار بقاءه فيها حرجاً ويشكل عبئاً على طواقم المستشفى.

في اليوم التالي تقدمنا بطلب تصريح للعودة إلى مدينتنا التي نسكنها رفقة والدي، حيث انطلقنا في تمام الساعة الثالثة عصراً، كان والدي بحالة سيئة فلم يلبث كثيراً حتى انتكس من جديد، انطلقنا والألم النفسي يكاد يقتلنا، فحالة والدي تزداد سوءاً. قبل وصولنا إلى المدينة تم تجهيز مكان في المنزل لوالدي، وحين شارفنا على الوصول اتصلت بمستوصف خاص لزيارة والدي في البيت،

وتقديم الرعاية الطبية المناسبة له، وبالفعل فور وصولنا وصلت سيارة الإسعاف وفيها طاقم طبي مكون من طبيب عام وممرضة، يرتدون الملابس الخاصة وكأنهم رجال فضاء. تم فحص والدي، وأخبرني الطبيب بعدم استقرار حالته الصحية، تم تقديم علاج مبدئي له. حاولنا إبقاء والدي في غرفة مهواة جيداً، وقدمنا له كل وسائل الراحة، وفي اليوم التالي قمت بطلب الطب المنزلي، وتم اعطاؤنا موعداً ليوم آخر. كانت حالته تزداد سوءاً. في اليوم التالي وبعد حضور الطب المنزلي لمعاينة حالة والدي، طلبوا التوجه به فوراً إلى المستشفى لارتفاع درجة حرارته بشكل كبير، وتم طلب الهلال الأحمر لنقله إلى المستشفى، وبعد ست ساعات من الانتظار تم فحصه لتبيان سبب حالته إن كانت نتيجة الإصابة بفيروس كورونا، وبعد إخبارنا بأن النتيجة سلبية، ورغم سوء حالته رفضوا إبقائه لوجود إصابات كثيرة بالفيروس خشية عليه أن تنتقل له العدوى، لذلك نقلته إلى البيت وكانت حالته غير مستقرة. لم يكن هناك بالإمكان أكثر من ذلك، فلا توجد حلول في الوقت الذي تعج فيه المستشفيات بالإصابات والحالات الخطرة، فضلاً عن أعداد الموتى الكبيرة.

الحالة الصحية لوالدي تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، فالأمراض توالى عليه حتى فتكت بجسده، وسلبت منه آخر أنفاس الأمل بالحياة، فتحوّل إلى جسد نحيل لم نعتده عليه بهذه الصورة يوماً، فهو الذي كان دوماً الشجاع المقبل على الحياة الذي لا يعرف الهزيمة، وأنا اليوم أقف متفجعاً رغم أنني لم أوفر جهداً أو وسيلة في سبيل إنقاذه، إلا أن الشعور بالعجز نال مني بعد أن انقطعت كل سبل الحلول، وبعد لحظات يقطع صمتي وشروذي رنين الهاتف، وإذ بعمتي تتصل، وهي شقيقة والدي الكبيرة وتطلب رؤيته، فهي لم تره منذ

زمن بعيد، ولخوفي عليها من العدوى ومراعاة عمرها، تهزّبت منها رغم محاولاتها الكثيرة للقدوم من أجل رؤية والدي.

بعد أيام قليلة اشتدت وطأة المرض على والدي، وبعد محاولات كثيرة لطلب أي جهة مسعفة، تمت الاستجابة أخيراً من إحدى المستشفيات القريبة، فأرسلوا سيارة إسعاف وعلى الفور تم نقله إلى المستشفى حيث مكث ١٢ ساعة لم يتلقَّ خلالها العلاج اللازم، إذ أنه كان بحاجة ماسّة للعناية المركّزة، فلم يكن هناك أي غرفة إنعاش متاحة أو حتى سرير شاغر، نظراً لكثرة الحالات الحرجة، وعلى الفور تم نقله إلى المستشفى العام ولم يسمحوا لي بمرافقته، فتبعته سيارة الإسعاف والخوف يكاد يقتلني، وفي طريقي خلف سيارة الإسعاف عزمت في قرارة نفسي أن أذهب به إلى الرياض ليتلقّى عناية أفضل، لكن وحين وصولنا إلى المستشفى العام تم استقباله في قسم الإسعاف، وعلى الفور تم إدخاله العناية المركّزة بعد أن غاب عن الوعي حيث تم تشخيصه بالتهاب رئوي حاد. لم يكن الدخول مسموحاً لازدياد الحالات الحرجة، فما كان أمامي إلا الانتظار في ساحة المستشفى حتى الصباح، وفي تمام الساعة السادسة صباحاً تمكنت من التواصل مع قسم العناية المركّزة، وأخبروني بأن والدي ما زال في غرفة الإنعاش وأن حالته لم تستقر بعد ولا يمكنني أن أراه في الوقت الحالي. اتجهت إلى البيت والألم يعتصرني، مكبلاً وعاجزاً ليس بيدي حيلة. وصلت منزلي ولا أعرف كيف وصلت. ثلاثة أيام لم أذق فيها طعم النوم، فمن أين يأتي النوم ووالدي تحت رحمة التهاب رئوي حاد ولم يكن فايروس كورونا السبب. كانت أياماً عصيبة أحسست فيها أن كل جبال الكوكب تقبع على صدري، والدي في الإنعاش وأنا وحيد في وسط هذه المصيبة لا أملك سوى الدعاء والابتهاال، فكل حلول الأرض قد نفذت من جعبتي، ولم يتبقَّ

سوى حلول السماء، فما عساي أن أفعل في وجه القدر؟! سلّمت
أمري لرب الأكوان واستجرت به في دعائي، فعسى دعائي يرد
القضاء.

الساعة تجاوزت الثالثة ليلاً بكثير -ليس مهماً- فلم تعد مسألة الوقت
تعينني، توقفت ساعتني لحظة دخول والدي المستشفى. كنت قد
فرغت من قيام الليل، حين وصلني نبأ إسعاف عمّتي إلى ذات
المستشفى حيث يرقد والدي، إذ تم نقلها إلى المستشفى إثر تدهور
حالتها الصحية فجأة، فوضعها كان حرجاً للغاية. تتتالي تلك الأحداث
القاسية من تدهور صحة والدي، وعدم مقدرتي على رؤيته، وحالة
عمّتي.. وعدم سماحي لها برؤيته رغم إلحاحها في الفترات السابقة،
زاد ألمي شعوراً بالذنب وعذاب الضمير، رغم أن تبريري لنفسني كان
خوفي عليها من أن تصاب بالعدوى، ومع ذلك لم يكن هذا التبرير
ليُخمد جمر الألم داخلي. ها هي الآن في الغرفة المجاورة لغرفة
والدي، لم تستطع أن تزوره سابقاً، ربما أجل القدر دعواتها الكثيرة،
واستجاب لها بأن كتب أن تزوره على فراش المرض، فسبحان الله..
هذه أقداره ومشيتته.. أرادت أن تقف بجانبه في مرضه وها هي ذي
لم تتركه وحيداً.

طيلة فترة مكوث والدي وعمّتي في المستشفى العام، وكل صباح
أقوم بالاتصال بطبيب العناية المركّزة للاطمئنان على صحتيهما،
ومع كل اتصال كان يخبو أمني عند سماعي ذات الجملة لا يوجد أي
جديد في حالتيهما"، وفي صباح اليوم العاشر الذي لم يختلف في
تفاصيله ومجرياته قيد أنملة عن الأيام الفائتة منذ تدهور حالة والدي
وتدهور حياتي معها. رغم أن الأيام تشابهت إلا أن صباحي هذا كان

عكراً حد القتامة، وكأن نوائب الكون وملّماته اجتمعت لتطبق على صدري، توجّست من ثقل وغرابة الشعور، فأمسكت هاتفي أستعرض أرقام الاتصال باحثاً عن رقم الطبيب، لم أجده بسهولة فقد تاه رقمه بين قائمة الأرقام التي كنت أتواصل معها بحثاً عن أي وسيلة أو معجزة للعلاج. قمت بالاتصال.. لم يُجب الطبيب أول مرة، فعاودت الاتصال للمرة الثانية ولم يستجِب، فأخذت أتصل بأقسام المستشفى دون أي استجابة، مما زاد خوفي خوفاً. لم أدِرِ ماذا أفعل، فلا يمكنني الخروج من المنزل بسبب اجراءات حظر التجوال، وبعد ساعة من محاولات التواصل، كل محاولاتي باءت بالفشل، هنا دق ناقوس الخطر في داخلي، رغم أنني كنت أخفّف عن نفسي بأن أهمس بتوتر لها "يبدو أنّ هناك أمر ما في كامل المستشفى، فانشغال طبيب العناية والطواقم الطبية أمر طبيعي في هذه الظروف" لكن الهمس يأبى أن يصبح صوتاً، وصوتاً واثقاً يُخمد جمر الخوف الذي أضنى روحي، وينسف التوتر الذي شلّ تفكيري عن إيجاد الحلول، لكن لا شيء ينفع. لا الكلام ولا التفكير.. حتى دعائي صرت أحسّه كالسراب، وكأنه يرتطم في كبد السماء، دون أن يحظى بفرصة للولوج من إحدى أبواب الاستجابة.

كان ذهابي إلى المستشفى أشبه بالمستحيل، حاولت أن أطلب تصريحاً للخروج كالعادة، ولكن طلباتي مُنيت بالرفض. "ساعة الترقّب" داخلي دقّت عقاربها لتنذر بحلول الثالثة عصراً، ولم أعرف ما الذي يحصل.. الوقت يمر ببطء مقيت، وكأن عقارب الساعة تشدّ الطاقة من بين غمام توتري، وفي الساعة الرابعة والنصف مساءً عاودت الاتصال لعلّ الطبيب يُجيب.. وبعد رنتين فقط يجيب

الطبيب "ألو"، فينصبّ جام توتري وخوفي وانتظاري خلال اليوم، في كلمة "دكتور"، كانت حادّة وقاسية تحمل في طيّاتها عتياً وخذلاناً من كل شيء، يتخللها نبرة حانية تبحث عن طمأنينة تستجديها روي التي أوشكت تلفظ آخر أنفاسها... في غمرة هذا الصراع الذي يلخّص أحاسيس الكون بـ "كلمة" وبأقل من جزء من الثانية... تابعت الحديث فأعقبت كلمتي الأولى بوابل من الكلمات "طمّني عن والدي.. وعمّتي.. هل هما بخير.. دكتور.. آسف... آسف لإزعاجك.. حاولت الاتصال بك كثيراً.. أعرف مدى انشغالك.. " الطبيب: أهلاً المعذرة لعدم الرد كان هناك استنفار داخل عُرف العناية، هل اتصلت فيك الإدارة؟ هنا فقدت الإحساس بأي جزء من أجزاء جسمي.. للحظة خطر لي أن أقطع المكالمة.. لعلها تسرق من "القضاء" صفحة والدي الأخيرة قبل أن يخطّها الأمر في لوح القدر.. أو عسى دعائي في هذه اللحظة يلقي فرصة للولوج إلى قاضي الأمر والحوائح، فيأخذ نصف عمري ويسجله في صفحة والدي قبل أن تصل مخطوط القدر.. آه كم كرهت هذه الجملة "هل اتصلت فيك الإدارة"، تمنيت أن تنشق الأرض لتبتلع قواميسها التي أنتجت بضع كلمات الشؤم هذه.. لعمري لست قادراً أن أصف حدة الشعور وكمية الأحاسيس التي تملّكتني في اللحظة قبل أن أجيب الطبيب بكلمة "لا"، لا... خائبة.. تأبى أن يكمل الطبيب الكلام.. خشية أن أسمع ما يثبت ادعاء إحساسي.. ويقول الطبيب: "أعتذر عن نقل الخبر، والدك تعرّض لتوقف قلب مفاجئ في تمام الساعة العاشرة صباحاً، وحاولنا إنعاشه بكل الوسائل الممكنة حتى أننا استخدمنا الصدمات الكهربائية أكثر من مرة.. لم يستجب قلبه في كل المحاولات.. أعتذر.. عملنا كل ما في وسعنا.. البقية في حياتك"

أقفلت الهاتف وأنا في لحظة ذهول من هول الصدمة، وبشاعة الخبر الذي أوقف دوران عقارب الحياة، وأحدث دويًا هزّ كياني وكأنه صوت يعقب انفجاراً هائلاً.. توقف بعده كل شيء، حتى قدماي عجزت أن تحمل جسدي، فخرّتا تستجيرا الأرض في حملهما الثقيل.

بعد ساعات تواصلت مع إدارة المستشفى، للاستفسار عن اجراءات الدفن، إذ أبلغونا بأنه مسؤولية المستشفى في مثل هذه الظروف، كما تمنع الصلاة عليه في المسجد أو غسله لأنه كان مصاباً بفيروس كورونا، وقد اعترضنا على ذلك الإجراء ولكنه من تعليمات وزارة الصحة للحد من انتشار الفيروس، وبعد مراجعة المستشفى تم السماح لنا بالصلاة عليه في المقبرة شريطة عدم الاقتراب من القبر، والابتعاد مسافة بعيدة تدمي العيون، فقد حُرّمتنا منه مرتين أولهما بسبب ظروف الحياة ومشاعلها فالفترة التي عشناها في كنفه لم تكن كافية، وثانيهما منذ أن دخل أول مستشفى، وحرماننا من رؤيته اليوم قبل وداعه ودفنه..

في اليوم التالي توجهنا إلى المقبرة، ومشينا خلف سيارات الإسعاف التي تنقل جثمان والدي، وصلنا إلى المقبرة وتم إلزامنا بالصلاة عليه من بعيد.. الوجد يسحقني من الداخل، ولا توجد كلمات تعبر عن هذه اللحظات.. لم يموت والدي؟ لم لا نستطيع غسله أو دفنه أو وداعه؟ أي جائحة تلك التي غيرت موازين الحياة؟ صلينا عليه في المقبرة ودعونا الله عز وجل أن برحمته التي وسعت كل شيء.

خرجنا من تلك المقبرة التي دفنّا فيها جثمان أبي، ودّعناه للمرة الأخيرة دون أن نرى وجهه. لم نر سوى جسد مغلّفٍ بأكياس بلاستيكية سوداء لم تغلّفه وحده.. بل غلّفت حياتي وحياة الآخرين

بكون جديد لم نعهده قبلاً، قوامه التعاسة والسوداوية. لم تعد حياتي كما كانت قبل موته، فكيف يبقى لي حياة.. وأنا الآن دفنت السند..

بعد انتهاء مراسم الدفن ذهبنا إلى منزلنا، لنحضّر مراسم العزاء، التي لم تكن كسابق عهدها، فالإجراءات الاحترازية تمنع التجمعات والاختلاط، لذا ستكون المراسم عبر الهاتف فقط. في الطريق إلى المنزل تلقينا اتصالاً من المستشفى مفاده أن وضع عمّتي الصحي تدهور أكثر، وكأنها أحسّت بفقد عضيدها، ولم يمض سوى بضعة أيام على تلقينا للخبر، حتى تلقينا نبأ وفاتها، وكأنها أجبرت الأقدار أن تكتب لها اللحاق بالوالدي حتى لا تتركه وحيداً، ف سبحان الله له حكمة في كل شيء.. ماتت تلك الأنيسة لنا.. ماتت صاحبة القلب الأبيض، لتكون بجوار والدي.. رحلا إلى ديار الحق، لنبقى مع الذكريات التي لن تفارقنا أبداً.

مرّت الأيام على وفاة والدي وعمّتي، لم تتحسن الحياة بعد رحيلهما، بل زاد التشديد والحظر بارتفاع وتضاعف أعداد الإصابات والوفيات إلى حد الانفجار الوبائي، وزادت معها العزلة أكثر، وبحكم عملي كأخصائي اجتماعي قرأت الكثير عما سببته هذه الكارثة على المستوى الأنثروبولوجي والسيكولوجي، وبالأخص الحالات والأمراض التي ستحل بالعالم مستقبلاً إثر هذه الجائحة، فقررت أن أستفيض فيما تبقى من كتابي هذا بالبحث حول موضوع العزلة وتبعياتها.

الفصل الثاني

العزلة

تعريف العزلة

تعددت تعريفات العزلة، حيث تم تعريفها لغةً "تَعَاَزَلَ القَوْمُ انْعَزَلَ بَعْضُهُمْ عن بَعْضٍ والعُزْلَةُ الانْعِزَالُ نفسه يقال العُزْلَةُ عِبَادَةٌ وَكُنْتُ بِمَعْزِلٍ عن كَذَا وكذا أَي كُنْتُ بمَوْضِعٍ عُزْلَةٍ منه واعتَزَلْتُ القَوْمَ أَي فَارَقْتُهُمْ وَتَنَحَّيْتُ عَنْهُمْ"، وأما اصطلاحاً فتم تعريفها بأنها "الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع".

أما ومن وجهة نظر علم النفس وعلم الاجتماع فجاء تعريف العزلة على أنها "الانقطاع التام عن العالم الخارجي والمحيط بالإنسان والاتصال المعتاد بالفطرة البشرية التي يحتاجها بعمق للاتصال والتواصل الحسي والمعنوي بين أفراد البشر والممزوجة بالتقلبات السيكولوجية المصاحبة معها لاكتشاف المجهول من الذات"، حيث أكد عالم الاجتماع الألماني جورج زيمل في كتابه "العزلة والحرية في سيكولوجيا زيمل"⁵ على أنّ الحرية والعزلة حقائق اجتماعية، فهي وعلى الرغم من أنها تحصل داخل الفرد بغالبيتها، إلا أنها إذا تحققت في غياب العلاقات الاجتماعية للفرد الحر أو المنعزل فإنها تفقد معناها، وهنا يقصد زيمل الفرد وعلاقته بنظيره الآخر، أو الفرد كجزء من علاقة ثنائية، وهنا يقصد حرفياً علاقة الفرد بأي كيان آخر منفصل عنه، وعلى سبيل المثال علاقته بكيان آخر ضمن المنظومة المجتمعية وقد يكون هذا الكيان فرداً أو مجتمعاً قائماً بحد ذاته.

حيث أن العزلة وبحسب زيمل، لا تعني الوحدة الظاهرية فقط، أي أنه لا يُعرّف الفرد كونه "وحيداً فيزيقياً"، فمفهوم كون أحد الأفراد لا

⁵ العزلة والحرية في سيكولوجيا زيمل – مقال مترجم عن الكتاب لسيرين الحاج حسين
<https://hekmah.org/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B2%D9%84%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%B3%D9%88%D8%B3%D9%8A%D9%88%D9%84%D9%88%D8%AC%D9%8A/%D8%A7-%D8%B2%D9%8A%D9%85%D9%84-%D8%B3%D9%8A%D8%B1>

يتفاعل مع الآخرين، هو بالطبع ليس حقيقة سوسولوجية، أي أنها لا تُعبّر عن مفهوم العزلة ككل، إذ أن مفهوم العزلة هنا لا يعني أبداً غياب المجتمع، بل تتضمن الفكرة وجود خيالي للمجتمع، ثم رفض لهذا الوجود، وكل ما في العزلة من مرارة ومن لذة، ما هي إلا استجابات مختلفة لمثيرات اجتماعية. العزلة هي تفاعل بين طرفين أحدهما يغادر بعد المرور بعدة مثيرات. العزلة ظاهرة أو حالة تحصل داخل الفرد، لكن في الحقيقة وجودها يتعدى داخل الفرد ويخرج ليتكوّن بينه وبين جماعة محددة أو بينه وبين الحياة مُجملاً. لكن لهذا أهمية اجتماعية أخرى: قد تكون هذه العزلة إعاقة لبعض العلاقات بين شخصين أو أكثر أو حدث دوري فيها. لكن يزيد تأثير هذه العزلة بشكل خاص في العلاقات التي من طبيعتها في الأساس نفي العزلة، وهذا ينطبق بالدرجة الأولى على الزواج الأحادي.

وعلى الجانب الآخر تناول زيمل في كتابه مفهوم الحرية، إذ أن الحرية كالعزلة في كونها حدث اجتماعي أكثر من كونه فردي؛ لأنها تعمل ضمن نظام من العلاقات، فلا يمكن قياس حريتك مثلاً أو اعتبارك حراً في منفى خالي من البشر تماماً حيث قال: "قد يكون هناك نوعاً من الحرية التي هي في حقيقتها ليست إلا انعدام العلاقات بالآخرين، أو غياب القيود التي تفرضها العلاقات مع الآخرين... لكن وبالنسبة للفرد الذي له علاقات بآخرين، فالحرية لها أهمية أكبر، وبالنسبة له الحرية في ذاتها هي علاقة بالبيئة، وظاهرة متلازمة تخسر جوهر معناها في حال غياب الطرف الآخر، أو النظر في العلاقة"

آثار العزلة

الآثار الإيجابية للعزلة⁶:

إذا كانت العزلة مؤقتة لبعض الوقت، فهناك العديد من الفوائد في قضاء بعض الوقت بصورة منفردة، وتُعتبر الحرية واحدة من هذه الفوائد، حيث أن قيود الآخرين لن يكون لها أي تأثير على الشخص الذي يمضي وقتاً في عزلته، وبالتالي فإن ذلك يعطي الشخص مجال أكبر لأعماله، وبزيادة الحرية تكون قرارات الشخص أقل عرضة للتأثر بالتبادل مع الآخرين، كما يمكن تحفيز إبداع الشخص بإعطائه قدراً من الحرية.

في عام 1994، وجد أحد علماء النفس أن المراهقين الذين لا يستطيعون تحمل أن يكونوا بمفردهم، عادة ما يقف عندهم تعزيز المواهب الإبداعية.

هناك فائدة مؤكدة أخرى للعزلة وهي تطوير الذات، فعندما يقضي الشخص وقتاً معزولاً عن الآخرين، فإنه قد يواجه تغييرات في مفهوم الذات لديه، وهذا يمكن أن يساعد الشخص على تشكيل أو اكتشاف هويته بعيداً عن التششت الخارجي، كما توفر العزلة وقت للتأمل والنمو في الروحانية الشخصية، وفي هذه الحالات من العزلة يمكن تجنب الشعور بالوحدة مادام أن الشخص المنعزل يعرف أن لديه علاقات ذات معنى مع الآخرين

الآثار السلبية للعزلة:

⁶ ويكيبيديا: <https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%B2%D9%84%D8%A9#%D8%A7%D9%84%D8%A2%D8%AB%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%8A%D8%AC%D8%A7%D8%A8%D9%8A%D8%A9>

لوحظ العديد من الآثار السلبية للعزلة على العديد من الأشخاص الذين يقضون وقتاً طويلاً فيها، حيث تسوء سلوكياتهم أكثر، كما يمكن أن تطلق العزلة عدداً من الاستجابات الفيزيولوجية التي تزيد من المخاطر الصحية.

فليس من الغريب أن تشكّل العزلة عامل خطر رئيسي قد يخلف الكثير من الآثار النفسية والصحية على الفرد، ولعلّ أخطرها الاكتئاب، فحسب دراسة أجراها باحثون من جامعة ولاية أريزونا الشمالية عام 2014، وجدت أن البالغين الذين يعانون من الوحدة، لديهم خطر متزايد بشكل كبير للإصابة بمرض الاكتئاب، حيث تساهم الوحدة أيضاً في أعراض اضطرابات الأكل، فقدان الشهية، وتسبب الوحدة في بعض الأحيان الشره المرضي.

ووفقاً لبحث أجرته جامعة ولاية بنسلفانيا، فإن المصابين بالوحدة يميلون إلى التفكير والتصرف بشكل سلبي تجاه الآخرين، ومن الممكن أيضاً أن ينقلوا مشاعر الوحدة إلى أصدقائهم، حيث أن الشعور بالوحدة يخلق حالة من العصبية العالية تجاه المجتمع وتجاه المواقف التي يواجهها الإنسان في حياته اليومية، ويزيد الشعور بالوحدة من القلق والذعر لدى الشخص، ومن الممكن أيضاً ان يصاب الإنسان بالقلق الاجتماعي بسبب الوحدة والعزلة أيضاً، بالإضافة الى ذلك فقد وجد باحثون من المملكة المتحدة أن الوحدة والعلاقات الاجتماعية السيئة ترتبط بزيادة مخاطر الإصابة بأمراض القلب بنسبة 29% وزيادة خطر الإصابة بسكتة دماغية بنسبة 32%.

أنواع العزلة

يمكن تصنيف العزلة بحسب آثارها على الفرد إلى:

العزلة السلبية:

وهي العزلة التي تؤدي إلى الخمول والكسل، وتحدث نتيجة لظروف يتعرض لها الإنسان وتجبره على الانطواء عن محيطه بشكل تام، أو تضيق دائرة من يحيط به من أشخاص في حياته اليومية، وهي ليست اختيارية بل قسرية. أسبابها وأسباب هذا النوع من العزلة إما نتيجة أفكار يتلقاها الإنسان من أشخاص مؤثرين يحيطون به، أو نتيجة لظروف سيئة حدثت له في حياته أثرت عليه سلباً وأجبرته على العزلة، أو نتيجة ظروف خارجة عن سيطرته أجبرته على العزلة. وغالباً ما تجد أن من يصاب بهذا النوع من العزلة ذو فكر متشائم، وهمة منخفضة وهذا يعود لأسباب وظروف نفسية حدثت له، أو أنه شخص تبعي في أفكاره واعتقاداته لا يستطيع حتى أن يكون رأياً معيناً في أي موضوع، أو أنه مجبر على ذلك، بالتالي تكون العزلة أفضل خياراته المتاحة.

العزلة الايجابية:

وهي عزلة اختيارية وليست دائمة إنما تكون مؤقتة أي تكون طوع رغبة واختيار الفرد، وهي مفيدة جداً كونها تشحذ النفس البشرية بطاقات إيجابية، وتخرج أفضل ما في المرء من طاقات ومكنونات، والأشخاص الناجحون دائماً ما تجد أن لهم أوقاتاً محددة يعتزلون فيها عن محيطهم، فالعالم يدخل في مرحلة من العزلة عندما يريد التفكير في معضلة ما ويريد إيجاد حلول لها، والكاتب لا يستطيع أن يبدع إلا في ظروف ملائمة من العزلة والانقطاع عن كل مشتتات

العالم الخارجي، ورجل الأعمال الناجح يحتاج دائماً إلى أن يعتزل بنفسه قبل أن يعقد صفقات جديدة.

وما يهمنا في كتابنا هذا هو مفهوم العزلة الاجتماعية وآثاره ومدى تأثيره في زمن الجائحة وبالتالي تأثيره على الأفراد والمجتمعات.

فالعزلة الاجتماعية الحقيقية هي التي تمتد عبر سنوات وعقود حتى تتحول إلى حالة مزمنة تؤثر على كافة عناصر تواجد الفرد، ولا يوجد لدى هؤلاء المنعزلين اجتماعياً من يلجؤون إليه في حالات الطوارئ الشخصية، ولا أحد يثقون به في أوقات الأزمات، ولا أحد يقيم سلوكهم وهو ما يطلق عليه في بعض الأحيان السيطرة الاجتماعية، ولكن ربما يكون أفضل وصف له أنه القدرة على رؤية كيفية تصرف الآخرين وتكيف الذات مع تلك التصرفات. ويمكن أن يتسبب غياب التواصل البشري المنتظم إلى نشوب خلافات مع المحيط الذي ربما يتحدث معه الشخص المنعزل اجتماعياً من وقت لآخر، أو ربما ينتج عنه مشكلات في التفاعل مع أفراد الأسرة. وقد يؤدي أيضاً إلى ظهور أفكار وسلوكيات مزعجة داخل ذلك الشخص. علاوة على ذلك، تؤثر العزلة الاجتماعية على المجتمع، وخصوصاً عندما تشمل البالغين. وفي معظم الأوقات، يتم إدخالهم إلى دور الرعاية إذا ظهرت عليهم علامات الإصابة الحادة بالعزلة الاجتماعية، حيث تعني التأثيرات اليومية لهذا النوع من العزلة الاجتماعية المزمنة، البقاء في المنزل لأيام أو حتى أسابيع، وعدم الاتصال والتواصل الحقيقي مع المحيط الخارجي.

ونظراً لأهمية هذا النوع من العزلة من حيث تأثيره في المجتمعات وحياة الأفراد، فمن الضرورة بمكان دراسته ودراسة أبعاده، ولا بدّ أن نفرّق بين العزلة الاجتماعية الحقيقية والعزلة الاجتماعية المدركة، فبالرغم من احتمال تأثير العزلة الاجتماعية الفعلية على العزلة الاجتماعية المدركة (الوحدة)⁷، فإن العزلة المدركة أكثر ارتباطاً بنوعية التفاعلات الاجتماعية عن مقدارها. ويرجع هذا بشكل جزئي إلى تأثير الوحدة بعوامل غير ذات صلة بالعزلة الفعلية، بما في ذلك الوراثة وبيئة الطفولة والمعايير الثقافية والاحتياجات الاجتماعية والإعاقات الجسدية والتناقضات بين العلاقات الفعلية والعلاقات المرغوبة. ومن ثم، تتنبأ العزلة الاجتماعية المدركة بالعديد من النتائج التي تفوق أو تتجاوز ما هو متنبأ به من قبل العزلة الفعلية. وقد كشف بحث أجراه كول وزملاؤه عن ارتباط العزلة الاجتماعية المدركة بالتعبير الجيني - وخصوصاً، انخفاض تعبير الجينات الحاملة لعناصر الاستجابة للقشراني السكري المضاد للالتهاب وفرط تعبير الجينات الحاملة لعناصر الاستجابة لعوامل نسخ العامل النووي المعزز لسلسلة ضوء كابا في الخلايا البائية النشطة الموالية للالتهابات، وتوازي هذه النتيجة انخفاض الحساسية للمفاوية للتنظيم الفسيولوجي عن طريق المحور الوطائي النخامي الكظري لدى الأفراد الذين يعانون من الوحدة.

على مدى العقدين الماضيين، زادت العزلة الاجتماعية مما تسبب في انخفاض التفاعل والتواصل الأسري، ومع تفشي فايروس كورونا أصبحت العزلة الاجتماعية ضرورة من ضرورات التحكم بهذا الانتشار والحد منه، إذ أن كوفيد 19 أحدث تأثيراً كبيراً في طريقة الحياة،

⁷ العزلة الاجتماعية - ويكيبيديا:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%B2%D9%84%D8%A9_%D8%A7%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%A7%D8%B9%D9%8A%D8%A9

وفرض أنماطاً جديدة للعيش والتواصل بين البشر شكّلت صدمة لغالبية سكان الكوكب، في الوقت الذي كثرت فيه أعداد الإصابات وحالات الوفيات واستشرت الأخبار والشائعات السلبية. كل هذا دفع بالبشر مجبرين للجوء إلى العزلة شبه التامة، هرباً من شبح الموت الذي خيم على الكوكب.

ومما لا شك فيه أنها ليست عزلة اجتماعية بمفهومها المعتاد، بل عزلة قسرية ونفي من الحياة إلى شواطئ سوداويتها، إنها عزلة الخوف من المجهول إلى المجهول، والهروب من الألم والفناء إلى فناء قد يكون أعتى وأشدّ ضراوة، إنها تجربة أمر من العلقم تجرّعنا فيها كأس الألم والفقد، حُضنا غمارها بسبب كائن مجهري رغم ضآلة حجمه إلا أنه فتك بنا، وغزا شتى الأقطار حتى قض مضجع الفقراء والأغنياء، الرعاة والرؤساء، الأطفال والشيوخ والرجال والنساء، وكأنّ جيناته ومورثاته تشكّلت من قواميس الداروينية، حين اعتمدت شيفراتها مبدأ "البقاء للأقوى والأصلح"، ليكون عنواناً لضحاياه، فإما أن تنجح في فك شيفراته وتنجو، أو تسقط أسماؤها من سجلات الحياة.

وأمام قدرة هذه المخلوقات الميكروسكوبية، وقف العالم بكل تقنياته، عاجزاً عن كبح جماح انتشارها وسطوتها التي شلّت حركة الكوكب، وتركت الإنسان في حيرة من أمره يراجع شريط حياته، وجبروته المزعوم، حين تكشّفت قزمية وجوده في رحى أول حرب خاسرة له أمام -وعلى حد تعبير العلم فيما توّصل إليه- أدق أحياء البسيطة وأكثرها تناهياً في الصغر.

آثار العزلة

من المتعارف عليه أن "الرضة أو الصدمة الجماعية" تصيب عادة مجموعة كاملة من الناس دفعة واحدة إثر حادثة خارجة عن نطاق السيطرة، فكيف إن كانت أكبر بكثير من مجرد "حادثة"؟ وكيف إن كانت "كورونا"، الذي ومنذ ظهوره وانتقاله إلى طور الانتشار حد الاستشراء، شكّل طفرة وحالة نادرة لمفهوم "الصدمة الجماعية"، هزّت البشرية جمعاء، ولك أن تتخيل أو تتذكر عزيز القارئ مقدار تلك الصدمة وما خلفته في أنفسنا.

وأذكر جيداً عبارة "ابق في المنزل" التي لن أنساها ما حييت، حين انتشرت أسرع من انتشار الوباء بحد ذاته، وعلى كافة الشاشات ووسائل الإعلام المرئي والمسموع وبكافة اللغات واللهجات، ونسفت أي مفهوم للتواصل بما يتضمنه من كلمات مثل "صباح الخير، من ثغرٍ باسمٍ". كأن هذه العبارة كانت مفتاح الأمان الوحيد للسيطرة على الوباء وتسطيح منحنى الإصابات، وعليها بالتحديد شُيّدت قواعد وإجراءات التعامل مع الوباء، رغم أن علماء الاجتماع شددوا مراراً على ضرورة أن يكون التوجه في هذا الخصوص "التباعد الجسدي" وليس التباعد الاجتماعي، فالوضع الصحي للكوكب لم يخرج عن السيطرة ضمن المنظومات الصحية وحسب، بل خرج عن السيطرة أيضاً في كل نفسٍ هزها الوباء بفقد غالٍ أو مجافاة للحياة بمفهومها القديم، وكان علماء الاجتماع على حق أيضاً في ما قالوه، فالوضع برمّته لم يحتمل التكهّنات، ويحتاج إلى شتى مظاهر ومفاهيم التكافل الإنساني والاجتماعي ولكن تحت مظلة الإجراءات الاحترازية، ولكن كيف؟ ونحن كائنات اجتماعية منذ بدء التكوين، ومخرجات ومخلفات الوباء تتنافى مع طبيعتنا البشرية، لكن السلوك

الإنساني آنذاك واللجوء إلى العزلة كان مبرراً في وقت خرجت فيه الأمور عن السيطرة، وانتقلت معها العزلة إلى مكان آخر أعمق من أن تكون فيه مجرد "عزلة اجتماعية"، شكّل هذا المشهد من حياة الكوكب تهديداً صريحاً للحياة من الجانب النفسي والاجتماعي، فصرنا تحت مطرقة وسندان الفناء، وبين أمرين أحلاهما مرّ، فإما أن نفنى بسبب الوباء، أو نفنى في سراديب زنانات العزلة تحت رحمة جلاديتها -الوهم والقلق والمرض النفسي- الذين لا يرحمون.

تلاقت وجهات نظر بعض "علماء الجانب الصحي" مع وجهات نظر علماء الاجتماع حين لاحظوا أن الوضع الصحي يخرج عن السيطرة وتزداد معه التبعيات النفسية والاجتماعية للقيود المفروضة لتحجيم كارثة الوباء، وحذروا من خطورة أن يتمادى هذا السلوك الحياتي فينبت للعالم جيل جديد من الانعزاليين، ومن الجدير بالذكر، أن نسلط الضوء في هذا السياق على فيلم "المنبوذ" أو ما يعرف بـ "Cast away"، علّه يكون خير مثال، وأفضل إسقاط لحياة المعتزل التي تبدأ بسقوط طائرة فوق المحيط، لتخط رحال أشلائها فوق جزيرة مجهولة. ينجو البطل بأعجوبة من مصيره المحتوم إثر تشظي الطائرة في الجو، وهذا المشهد يشبه إلى حد ما مشهد الهروب الجماعي من الوباء إلى بر النجاة. ينجو البطل من الموت ولكن إلى أين؟ إلى مصير مجهول ومكان مفتوحة فيه كل الاحتمالات بنسبة نجاة ضئيلة؟! إن لم يمت إثر تحطم الطائرة، فهو هالك لا محالة.. وقد يلقي حتفه من الجوع والعطش أو تحت أسنان مفترسين، وإن شفقت عليه الحياة التي نبذته منها، فقد يكون مصيره الموت تحت سياط العزلة القاتلة، وهذا المشهد يشبه تماماً حالة الناجين من سطوة الوباء إلى غرف الانعزال التام. لكن بطلنا لا يستسلم للمصير، فيحاول أن يستكشف معالم الجزيرة ويخترع أي سبيل يساعده على

التكيّف للعيش عليها، حتّى وصلت به الحالة إلى محاكاة "مفهوم الخلق"، عندما قذف المحيط إليه بكرة سلّة، راح يرسم بدمائه ملامح وجه صديقٍ له أسماه "ويلسون"، وأصرّ البطل على أن يرسمها بالدماء مراراً لتكون الرابطة بينهما دموية قبل أن تتطور فيما بعد ليصبح ويلسون الصديق والأخ المؤنس لبطلنا الذي يحادثه نهائياً وليلاً في الحزن واليأس وحتى في شذرات السعادة التي كانت تنثرها الحياة من سمائها، كلما لمح بطلنا سراب سفينة يرتسم في أقصى المحيط، وفي هذا المشهد بالتحديد يصوّر حجم الألم والمعاناة في أتون الوحدة، ومدى حاجتنا إلى التواصل، ففي دراسة أُجريت عام 2003 بجامعة بيتسبرغ⁸، شارك فيها 304 متطوع، وبعد البحث في نشاطهم الاجتماعي والتأكد من مواعدهم للتجربة تم تعريضهم لفيروس نزلات البرد، وجد الباحثون أن الأشخاص الأكثر نشاطاً اجتماعياً، تكون أجسادهم ومناعتهم أقوى وقادرة على التخلص من الأعراض بسرعة، بينما الأشخاص المعزولون تكون أعراضهم أكثر حدة وقابلة للتطور بسرعة. كما أن مناعتهم تصبح ضعيفة إلى حد كبير، وعلى الرغم من أن العزلة الاجتماعية تتشابه في أنواعها وأنماطها إلى حد كبير، ولو أجرينا مقارنة بسيطة مع طبيعة وظروف التجربة التي نفّذتها الدراسة، آخذين في الاعتبار معرفة الأشخاص أنهم تحت التجربة وأنها فترة مؤقتة ولن تشكل خطراً عليهم، نستخلص أن تجربة بسيطة مع العزلة وبمثل الظروف آنفة الذكر، فعلت ما فعلت في أجساد المتبرعين للتجربة، فكيف إذا أسقطنا هذه الجزئية على الواقع، وقمنا بمقارنتها مع تبعيات الوباء - حيث تكمن التجربة الحقيقية- بما يحمله من مخاطر حقيقية

⁸ In a time of distancing due to coronavirus, the health threat of loneliness looms <https://www.statnews.com/2020/03/28/coronavirus-isolation-loneliness-health>

وعواقب وخيمة، نرى أن آثار العزلة هنا ستكون أكثر فتكاً وتدميراً على الأفراد والمجتمعات، وعلى كافة المستويات النفسية والصحية والاقتصادية والاجتماعية، إذ كان من أبرز تبعياتها انعدام التواصل الحسي والذي كان له أثراً سلبياً بالغا، وهنا جاء دور التكنولوجيا الرقمية والوسائط الافتراضية لتحل بديلاً للتفاعل الحي، إذ بإمكانك تنظيم مواعيد للعمل عن بعد، أو للطهي أو مواعيد للردشة مع الأصدقاء، أو ممارسة التمارين الرياضية معهم عبر تطبيقات الفيديو، والانضمام إلى نوادي الكتب والأفلام الافتراضية. لقد خفت التكنولوجيا وطأة الكارثة وذلّت الشعور بالعزلة.

الأوبئة على مر التاريخ

في أزمنة الأوبئة وفي خضم الظروف التي تضعنا الحياة في بوتقتها، لا بدّ أن نعيد قراءة التاريخ، والاستفاضة في تاريخ الأوبئة على وجه الخصوص، حتى نتقّص أخبار أسلافنا وملاحمهم في وجه الأوبئة، وكيف تعاملوا في خضم الكوارث الكبرى، وهم دون تكنولوجيا وتقنيات رقمية متطورة، أو حتى أبسط الاحتياجات في منازلهم. فالعلماء والأدباء والمفكرين لم يكن بمقدورهم قراءة الكتب عبر الإنترنت، أو التواصل فيما بينهم كما في عصرنا الحالي، ورغم ذلك نرى أن روائع الأدب العالمي تم إنتاجها في أعتى الظروف، وفي عزلة تامة، وبصمت تخطت كل المحن لتبقى خالدة.

طاعون جستنيان: سنة 541-542 ق.م

يسود اعتقاد أن هذا الوباء هو الأول من نوعه في سلسلة الطواعين الدُمّلية أو النزفية في العالم، واستمد اسمه من اسم الإمبراطور البيزنطي الذي انتشر في عهده هذا المرض من براغيث مصابة حيث نقلته قوارض حول العالم.

الموت الأسود: سنة 1347-1352

تعد هذه الجائحة إحدى أعظم الكوارث على الإطلاق، وقد بلغت حصيلة أعداد الوفيات ممن أصيبوا به، رقماً مهولاً يناهز مئتي مليون شخص. اشتهر في العصور الوسطى باسم "الموت الأسود" وهو يشير إلى مرض الطاعون، والذي خلف وراءه الكثير من الضحايا، وكان علاجه متعسراً للغاية، فقد أودى بحياة جيوش بأكملها وتسبب في موت ما لا يقل عن ثلث سكان القارة.

جدري العالم الجديد: سنة 1520

عندما وطئت أقدام المستكشفين أراضي العالم الجديد (وهو مصطلح أُطلق على القارتين الأمريكيتين الشمالية والجنوبية) كانوا يحملون معهم أشياء أخرى غير الفجل (اللفت) والعنب. فقد نقلوا معهم أيضاً الجدري والحصبة وفيروسات أخرى لم يكن لسكان تلك المناطق مناعة ضدها. فقد هلك جراء تلك الأوبئة ما بين 80-95% من سكان أميركا الأصليين خلال 100-150 سنة التي تلت عام 1492.

طاعون لندن العظيم: سنة 1665

يُلقى اللوم في هذه الجائحة أيضاً على الفئران والبراغيث المؤذية التي وجدت ضالتها في شوارع لندن، وتراكت فيها النفايات والفضلات لا سيما في الأحياء الفقيرة منها، بحسب الأرشيف الوطني الإنجليزي.

وباء الكوليرا: سنة 1817-1923

مجتمعات قليلة تلك التي نجت من هذه الجرثومة (البكتريا) الشديدة العدوى التي تنتقل عبر المياه الملوثة بالبراز وتسبب في إسهال حاد وتقيؤ. وقد تفشى هذا الوباء في لندن عام 1854.

الحمى الصفراء: أواخر القرن التاسع عشر

مرض فيروسي مستوطن في أميركا الجنوبية وأفريقيا جنوب الصحراء. وتنتقل العدوى فيه عبر أنثى البعوض، وقد أُطلق عليه هذا الاسم لأنه يحول جلود المصابين به في الغالب إلى اللون الأصفر. سنة 1793، تفشى الوباء في مدينة فيلادلفيا التي كانت آنذاك عاصمة الولايات المتحدة. وقد أودى بحياة ما يقارب 10% من السكان، ولم يعرف سبب الإصابة حتى عام 1900 عندما حدد علماء الجيش الأميركي البعوض كناقل للمرض.

إنفلونزا 1918: سنة 1918-1920

ثمة قدر من التشابه بين كوفيد-19 وإنفلونزا 1918، التي أطلق عليها أحياناً اسم الإنفلونزا الإسبانية، نظراً لأن منبعها كان في دولة إسبانيا. على أن معد المادة التفاعلية يرجع السبب في هذه التسمية إلى أن إسبانيا كانت الدولة الوحيدة التي اتسمت بالصدق بشأن حصيلة ضحايا تلك الجائحة التي انتشرت إبان الحرب العالمية الأولى، وتفشت تلك الإنفلونزا في موجتين الأولى بدءاً من عام 1918 قبل أن تنتهي عام 1920. وأُصيب بالوباء زهاء خمسمئة مليون شخص، توفي منهم خمسون مليوناً حول العالم، حسب مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها، وهي مؤسسة وطنية أميركية رائدة في مجال الصحة العامة.

الإنفلونزا الآسيوية: 1957-1958

أول من لفت الأنظار إلى هذه الإنفلونزا هو الدكتور موريس هيليمان، الذي اعتُبر فيما بعد الأب الروحي للقاحات، والذي كان يعمل في مؤسسة والتر ريد العسكرية للبحوث عام 1957 عندما نشرت نيويورك تايمز مقالاً عن تفشي وباء إنفلونزا خطير في هونغ كونغ، وتطرقت فيه إلى وجود أطفال في عيادة طبية بدت عيونهم خالية من أي تعبير أو حياة، كناية عن الموت.

ووفق مجلة سميثونيان، فإن شيئاً ما في عيون أولئك الأطفال نبّهته إلى حدوث أمر ما "وأخبره حدسه حينها أن تلك الوفيات هي جائحة إنفلونزا جديدة"، وقد طلب هيليمان بعدها إرسال عينات من

الفيروس إلى شركات تصنيع الأدوية بالولايات المتحدة على جناح السرعة، حتى يتسنى لها إنتاج لقاح للوباء، ومع أن سبعين ألف شخص قضوا في البلاد، فإن البعض أشار إلى أن حصيلة الوفيات هناك كانت من الممكن أن تصل إلى مليون شخص لولا اللقاح الذي نصح هيليمان بتصنيعه.

إنفلونزا الخنازير: 2009

قبل تفشي فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19) كانت إنفلونزا الخنازير قد أحدثت وباءً يضرب العالم، إذ أصاب 21% من سكان المعمورة. كان مرض إنفلونزا الخنازير مسؤولاً عن وباء الإنفلونزا الذي ظهر في المكسيك، ثم انتشر في جميع أنحاء العالم، ولحسن الحظ لم يكن شديداً كما كان يُعتقد في البداية، وقد أعلنت منظمة الصحة العالمية في عام 2010 أن الوباء قد انتهى. هي واحدة من سلالات الإنفلونزا الرئيسية التي ما تزال تنتشر بين H1N1، ولكن مخاطر إنفلونزا الخنازير ما تزال قائمة، إذ أن إنفلونزا كبار السن والنساء الحوامل، ومرضى القلب، والرئة، والكلية وأمراض الكبد وبالتحديد هؤلاء المعرضون لمخاطر المضاعفات. إنفلونزا الخنازير هو الفيروس الذي ينتشر بنفس طريقة انتشار الإنفلونزا الموسمية عن طريق الاتصال المباشر مع شخص مصاب، واستنشاق الجسيمات المحمولة جواً والتي تحتوي على الفيروس المنبعث من فم شخص مصاب أثناء السعال، أو العطس كما ينتقل أيضاً بلامسة الأشياء التي تم تلوئتها من قبل شخص مصاب بفيروس الإنفلونزا.

أدب العزلة

على النقيض والمنقلب الآخر، وفي غمامة الآثار السلبية للعزلة الناجمة عن الوباء، لا شك يوجد فيضٌ لا بأس به من الآثار الإيجابية التي قد تثري المجتمعات وتدعمها في محنة الوباء، فمن صفات العزلة أنها بداية الحكمة، وبداية الجنون، ومنها انبثقت الروائع الأدبية، وعلى سبيل المثال لا الحصر ولدت مقدمة ابن خلدون في مغارة جزائرية تقع في مدينة فرندة غربي العاصمة، ونرى الراحل محمود درويش قد أدمن العزلة، إذ يقول عنها، "ربيتها وعقدت صداقة حميمة معها، فالعزلة هي أحد الاختبارات الكبرى لقدرة المرء على التماسك، وأشعر بأنني إذا فقدت العزلة فقدت نفسي"، وفي العصر الجاهلي اعتاد الشعراء أن يلتجئوا إلى العزلة من أجل الإلهام، إذ نُظمت في المعتزلات أروع القصائد والأشعار، وقد وصفها الشاعر صفي الدين الحلي بنظمه: "وأطيب أوقاتي من الدهر خلوة.. يقر بها قلبي ويصفو بها ذهني."

في حين وصف المفكر اللبناني ميخائيل نعيمة العزلة في سيرته "سبعون"، حيث قال: "حريص كل الحرص على عزلتي، فالعزلة حاجة في نفسي مثلما الخبز والماء والهواء حاجة في جسدي، ولا بد لي من ساعات أعتزل فيها الناس لأهضم الساعات التي صرفتها في مخالطة الناس."

أما العزلة من وجهة نظر الروائي الروسي دوستويفسكي، فهي نضج وحكمة، وكتب في ذلك "مشكلتنا يا صديقي.. كلما نضج العقل فضلنا الانعزال والوحدة"، وكتب أيضاً: "العزلة زاوية صغيرة يقف فيها المرء أمام عقله".

وقد وصفها الروائي الأمريكي إرنست همينجوي بأنها وطن للأرواح المتعبة، وجسد الشاعر الإسباني "رافائيل ألبرتي" الفكرة ذاتها عندما كتب "أنت في وحدتك بلد مزدحم".

إذن العزلة كنز مكنون في جوهرها، لما تفتح من آفاق للإبداع، وتخلق له رؤى ومخرجات خالدة، وفي هذا السياق نطرح الدراسة التي وضعها غريغوري فيست⁹، الباحث في علم النفس الإبداعي في جامعة سانت هوزيه بكاليفورنيا، التي وضع فيها تعريفاً للإبداع مفاده أنه تفكير أو نشاط يقوم على الأصالة والفائدة، وقد توصل إلى أن صفات الشخصية المبدعة تتميز بالانفتاح، والاستقلالية، التي ربما تتضمن "عدم الاكتراث بالعادات الاجتماعية"، و"تفضيل البقاء في عزلة".

في الحقيقة، يظهر بحث فيست الذي أجراه على كل من العلماء والفنانين أن من أبرز صفات المبدعين هي قلة اهتمامهم بالمخالطة الاجتماعية.

منذ عصر النهضة تقريباً، منذ عام 1600، بدأت أزمة الخوف من انهيار الحياة البشرية، ومرت بها أوبئة ونكبات وحروب فكان جواب شكسبير للرد على الطاعون الأسود «أكون أو لا أكون» محاولة للتمرد في مواجهة الموت، كما أن الروائي الإسباني ميغيل ثربانتس كتب روايته الأيقونية «دون كيخوتي دي لا مانتشا»، في مغارة جبلية في حي بلوزداد، طولها سبعة أمتار وعرضها متران في وسط العاصمة الجزائرية، ونشرت على جزأين بين عامي 1605 و1615، حيث عانى تجربة الأسر قضى فيها عزلته في الكتابة.

⁹ أدب العزلة: <https://www.albawabhnews.com/3983719>

وأشهر الأمثلة على روائع العزلة رواية «بحثاً عن الزمن المفقود» للروائي الفرنسي مارسيل بروست، والذي أجبرته إصابته بمرض الربو على الانعزال عن الآخرين، وحينما مات والده وأمه في فترة متقاربة، انعزل تماماً في حجرته، فكان يكتب كالمحموم في غرفة مبطنة بالفلين لتعزل صوت العالم الخارجي عنه، ويغلق النوافذ بإحكام شديد، بل كان يعبق أجواء الحجرة بالمطهرات، في مقارنة لما عايشناه في فترة الجائحة.

وعن مفهوم العزلة القسرية، لا بد أن نستحضر قصة "الرهان"¹⁰ لتشيخوف، والتي تبدأ بحفلة يتناقش فيها الحاضرون بشأن العقوبة الأقسى: الإعدام أم المؤبد. يرى المصرفي المضيف أن الإعدام أرحم لأن «الإعدام يقتلك فوراً فيما المؤبد يقتلك ببطء»، ويخالفه محام شاب يرى أن «الحياة، أيّاً تكن، أفضل من لا حياة على الإطلاق». وهنا تبدأ قصة تشيخوف الفعلية حين يتراهن المصرفي والمحامي على أن يقضي المحامي خمس عشرة سنة في غرفة معزولة عن العالم الخارجي تماماً ليس فيها إلا كتب وموسيقى وتبغ وكحول، من دون أيّ تواصل بشري على الإطلاق. الفكرة ليست سيئة لو أردتم رأيي، خاصة إذا ما تكلمت بمليون روبل بعد انتهاء فترة العزلة الطوعية.

إذ يصور لنا تشيخوف بأسلوبه المحايد البارع تغيّرات المحامي في العزلة من الندم إلى القبول بالأمر الواقع وصولاً إلى التأقلم والاستمتاع بالكتب، إلى أن يصل إلى مرحلة هضم مئات الكتب وبضع لغات، ومن ثمّ النفور منها ليُقبل على قراءة الإنجيل والكتب اللاهوتية. تنتهي العزلة بالزهد؛ زهد من الحياة المادية كلها، ومن نقود الرهان التي يركلها بطيب خاطر، إذ يخلّص إلى أن «كل شيء لا قيمة له، زائل، طيف، وهم، مثل سراب»، ليهرب من ثمّ إلى العالم الخارجي ليصبح أحد الدراويش الزاهدين.

«الرهان» على الأغلب، ليست أفضل قصص تشيخوف، إذ هي أقرب إلى أمثلة تولستوية، ولذا لن نجد لتلك القصة حضوراً يوازي قصصه الأجل والأفضل. ولكنّ تحولات الشاب هي ما يهمنا هنا؛ عزلته هي العنصر الأبرز بصرف النظر عن نتائجها.

¹⁰ تأملات في أدب العزلة/ المحنة: <http://www.alkalimah.net/Articles/Read/21729>

لا ينقل لنا تشيخوف توصيفاً دقيقاً للكتب الستمئة التي قرأها المحامي في عزلته، وإن كان قد ألمح إلى أنّ الكتب التي غيرته هي الكلاسيكيات. على الأرجح أنّه قرأ سوفوكليس، ولا بدّ أنّه قرأ سيفر أيّوب. عام 1885، الذي انتهت فيه عزلته، تاريخ مبكّر جداً لمعرفة الأدب الرافدي، ولذا فهو لم يعرف لوغالباندا بكل أسف. لوغالباندا السومريّ وفيلوكتيتيس الإغريقيّ وأيّوب النبيّ؛ ثلاثة رجال قاسوا عزلةً أشدّ وطأة من عزلته، فعزلتهم قسريّة ترافقت مع مرضٍ بمثابة عقاب إلهيّ لسبب مجهول، ولم تتكلّل بالزهد (فليعذرنا تشيخوف وتولستوي هنا!). ماذا لو أنّ بطل تشيخوف عرفهم؟ هل كانت نتائج عزلته ستتغير؟ لا نعرف عن بطل تشيخوف، ولكننا نعرف هؤلاء الرجال الثلاثة، ونعرف العزلة التي قاسوها، وتكاد تكون قصة واحدة باختلافات طفيفة. ثلاثة ملوك أصابهم مرضٌ غريب مفاجئ نقرّ منهم الجميع حتّى أقرب المقرّبين، تليها مرحلة التفجّع والشكوى للآلهة، ومن ثمّ الشفاء وبداية حياة جديدة بمثابة مكافأة على صبرهم. ذاك هو الخط العام المشترك بين القصص الثلاث وهو الخط العام السائد لتأويل هذه القصص. القصص ثابتة ولكنّ التأويلات تختلف باختلاف القرّاء بطبيعة الحال. فلنستغل فرصة وجود قصص لم تُتّح لبطل تشيخوف، ولنعيش حياة لا تشبه حياتنا.

قرأت عن العزلة

يظن الناس أن العزلة تجعلك وحيداً، ولكني لا أعتقد أن هذا صحيح..
عندما تكون محاطاً بالأشخاص الخطأ فهو الأمر الأكثر وحدة في
العالم.

كيم كولبير تسون

العزلة وطن للأرواح المتعبة

إرنست همينغوي

الألم يغير الناس، فيجعلهم يثقون أقل ويفكرون أكثر وينعزلون أطول.

جبران خليل جبران

لن أنسى أبداً كيف أن العزلة والكآبة كانا شيء جيد وسيء في آن
واحد. ولا يزالان كذلك.

هنري رولنز

"من لا يستمتع بالعزلة لن يهوى الحرية"

آرثر شوبنهاور

الخاتمة

سيولد العالم من جديد

في كل عقد من الزمن يستيقظ العالم على جائحة ووباء جديد يهدد البشرية بالإبادة، وتتسارع الدول وعقول العلماء والمفكرين بالخروج من تلك الكوارث الإنسانية بأقل الخسائر، وفي كل تجربة يخرج العالم أقوى تتسابق فيه الدول على إيجاد خطط لمثل هذه الكوارث عند حدوثها، وبالرغم من هذا كله.. جيوش العالم والأسلحة الفتاكة وتطورها.. التقنيات الرقمية.. تقنيات الجيل الخامس.. والذكاء الصناعي.. وقف العقل البشري في هذا القرن عاجزاً لفترة طويلة أما كارثة "كوفيد 19" التي وضعت الدول جميعها في حالة تأهب قصوى لم يشهدها العالم على مر التاريخ كارثة حلت بالعالم أجمع، وطالت كل الدول المتقدمة التي طالما حسبناها الوجهة في التطور العمراني، والتقدم التقني، وصاحبة المنظومات الصحية المتكاملة. تهاوت هذه الأدوات وسقطت معها الدول من عيوننا، وعندما اكتشفنا حقيقة ضعفنا، وعدمية جبروتنا، رحنا نستجير ألطاف البارئ، ورغم كل ما جنينا من أخطاء إلى جنب طاعته وسوء التقصير، يأتي لطف الله عز وجل ليجلي هذه الغمة عن البشرية ويولد العالم من جديد لذلك علينا من هذا الدرس القاسي والكابوس المرعب، أن نتيقن بأن القوة لله وحده، وأنّ الأوطان تُبنا بأيدي أبنائها وأن الثروة الحقيقية بالعقول البشرية وأن كل الشعارات الزائفة ستسقط، وأن الوقاية خير من العلاج، وأن العلم هو سلاح

الأمم وأن المجتمع منظومة متكاملة فكل عمل يكمل الآخر وأنه لا
ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه.